اصلاح تركيا

تاريخه وماهيته وتأثيره

وروح ابطاله

الالسنة تلهج بالدستور الجديد والافكار حائمة حوله واهوية المجالس العمومية والخصوصية تتموّج باللغط فيه فلا يليق بمجلة الجامعة ان تقع بين ايدي قرائها وهي خالية من الابحاث اللازمة بهذا الموضوع وأهمها تاريخ الاصلاح في تركيا وماهيته والمراد منه سابقاً وحاضراً وتأثيره والله المستعان

نبذة أولى

فذلكة تاريخية في القرن الماضي من حكم محمود حتى بدء حكم السلطان عبد العزيز

هلّ هلال القرن الماضي على الدولة والملك في قبضة السلطان سليم الثالث المصلح فانه تولى السلطنة ١٨ عاماً بدأها بمتابعة الحرب التي كان السلطان عبد الحميد الاول قد اوقد نارها مع الدولتين الروسية والنمسوية وختمها باعلان الاصلاح العسكري العثماني الذي دعاه المؤرخون بالنظام الجديد وأدى الى استياء اجواق الانكشارية منه وخلعه في شهر مايو (ايار) عام ١٨٠٧ . وقد قام بين هذين التاريخين باعمال جليلة بالرغم من المصاعب والقلاقل التي احاقت بالبلاد في عهده كثورة محمد علي باشا والي يانيا وطوالع ثورة اليونان . وخلفه السلطان مصطفى ولكنه لم يتربع في سرير السلطنة غير اشهر قليلة فخلفه السلطان محمود الثاني الذي نظم الجيش وفتك باجواق الانكشارية وكان اول سلطان نادى بالتنظيم والعدل والمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين على اختلاف

مللهم ونحلهم . وفي ٢٨ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٠٨ دعا مصطفى باشا البرقدار وزيره وأمره ان يدعو الكبراء والاعيان لمفاوضتهم في شؤون الاصلاحات التي قرر ادخالها الى السلطنة . فيرى القارئ مما تقدم ان تاريخ الاصلاح في تركيا يبتدئ منذ قرن كامل . وبعد السلطان محمود الثاني بقي الاصلاح كامناً في صدر الامة حتى عهد عبد المجيد فقاومته روسيا ثم ظهر لعهد السلاطين الثلاثة عبد العزيز ومراد وجلالة عبد الحميد اذ قام بعض الغيورين مثل مدحت باشا وبثوا ما في صدر الامة من امنية الاصلاح

وفي ١٦ يونيو (حزيران) سنة ١٨٢٦ اصدر السلطان محمود الخط الهمايوني القاضي بتنظيم الجيش كما تنظم الجيوش الاوروبية . الا انه لم يكن أسعد حالاً واكبر نصيباً من سلفه السلطان سليم الثالث فقد أصلى حربين مع الدولة الروسية فشلت الدولة فيهما . الاولى في عام ١٨١٠ وقد انتهت في شهر مايو (ايار) سنة ١٨١٢ والثانية سنة ١٨٢٨ وقد انتهت في سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٢٩ واضطر السلطان محمود في خلال هذه السنوات ان يقاتل الصربيين واليونانيين وجنود محمد علي باشا والي مصر فعجل ذلك بموته فتوفي بعد واقعة نزيب التي انكسرت فيها قوات حافظ باشا . وخلفه نجله الاكبر السلطان عبد المجيد وهو في السابعة عشرة من عمره . وكانت المسألة المصرية أعظم شاغل للدول فاصدر فرمان سنة ١٨٤٢ الذي كان ختام ادوارها

ولما فرغ من مشاغله الداخلية التفت الى ما كان قد بدأه ابوه من قبله فأيده وأعلن سنة ١٨٣٩ فرمان الاصلاح المعروف بفرمان ,, كل خانه ،، ثم ناط بمصطفى رشيد باشا المصلح العثماني المشهور تحقيق ذاك الاصلاح الذي ساء الحكومة الروسية فاقترحت على انكلترا منذ عام ١٨٨٤ اقتسام تركيا وكانت الدولة الانكليزية تنصام عن ذلك . فكانت روسيا تزداد استياء بقدر ازدياد الاصلاح انتشاراً في بلاد الدولة وظلت تدس الدسائس الى ان اصلت نار الحرب بينها وبين الدولة العلية سنة ١٨٥٤ ولم تكن تعتقد ان انكلترا وفرنسا تنتصران

للدولة عليها

ولما انتهت تلك الحرب بفشلها اعلن السلطان عبد المجيد الخط الهمايوني الثاني في ١٨ فبراير (شباط) من عام ١٨٥٦ قبيل مؤتمر باريس ساوى فيه بين جميع الرعايا العثمانيين وصرّح بقبولهم جميعاً في الجندية العثمانية بلا اختلاف ولا تفريق غير ان بعض رجال حزب التأخر حالوا دون انفاذ هذا الخط الهمايوني . وقد توفي سنة ١٨٦١ فخلفه اخوه السلطان عبد العزيز

٢ — عبد العزيز ومراد

بدأ عبد العزيز حكمه بقمع ثورة الجبل الاسود والصرب وكانت مدة حكمه ١٥ سنة قضاها منغمساً في شهواته وملذاته وكان مغروراً ومتعظماً ومحباً لنفسه ومسرفاً ولم يهتم قط بمصلحة الامة والدولة فكان سلوكه سلوك حاكم في عصر الجهالة ولكن المدنية الاوروبية لا تمهله حتى يأذن لها بالدخول الى بلاده في حين انها كانت تتدفق على الشرق فاستطرقت الى تركيا في طريقها . وبينما كان السلطان مضجعاً في سرير ترفه كان نبهاء الشعب متيقظين وقد ساعدهم تراخيه على التمرّس على حب الحرية والتمدن الجديد ولا سيما لانهم كانوا يدرسون الآداب الغربية وكان لهم المجال رحيباً لان حرية المطبوعات والجرائد لم تكن مخنوقة . فانشئت لذلك العهد جريدتا ,, مخبر ,, و,, حريت ,, وكانتا تبثان روح الاصلاح في الامة ونشأ الشاعر النابغة كامل افندي فاثار الوطنية في الصدور بمنظوماته الحماسية ولا سيما لانه كان يقرّع بالحكومة . وعند ذلك استيقظ السلطان عبد العزيز من غفلته مذعوراً وبدل ان يتدارك المملكة بالاصلاح اعتمد على وزيره محمد نديم باشا وشاركهما بالرأي اغناتيف سفير روسيا فاتفقوا على اعلان افلاس تركيا بدل ان يتفقوا على اصلاح ماليتها وتقويم حال البلاد كلها . وكان ذلك علة عداء الاوروبيين الشديد لتركيا لان الذين

لهم اموال لا يقبلون مزاحاً بالمسائل المالية. وعليه انتهزت روسيا في خلال هذه الازمة فرصة تغيظ الصليب الاوروبي من الهلال التركي واثارت الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٦ التي كانت ويلاً على تركيا

وزد على ذلك ان مسألة الخلافة انشأت عقدة سياسية اخرى افضت الى خلاف انكلترا وروسيا فان هذه رغبت ان تكون الخلافة للبرنس عز الدين ابن السلطان عبد العزيز لانها كانت تعتقد انه يميل لها وانكلترا كانت تؤيد الامير مراد لانه صاحب الحق والامة تحبه لتعقله وحسن آدابه ومعرفته

وكان مدحت باشا ابو الاحرار من أعظم انصار مراد فلما ساءت كل حال في المملكة استمالـــ اليه محمود نديم باشا الصدر الاعظم . واستوثق منه ان لا يحرك ساكناً ضده ولا يقضي اوطار روسيا . وعند ذلك أثار السفطاء أسيے العلماء وقراء القرآن والمشائخ وعددهم يبلغ نحو ٤٠ الفاً فاضطر السلطان ان يرضيهم بعزل نديم باشا الصدر الاعظم وعزل شيخ الاسلام وتعيين مدحت باشا وزيراً . واستوز محمد رشدي باشا صدراً أعظم

ولما ثار اهل الفلاخ والبغدان ولّي حسين عوني باشا قيادة الجيش فقمع الثورة . ولما تعرف مدحت باشا بعوني باشا هذا واطلع على مبادئه وجده خير نصير له على الاصلاح فاتفقا على تنظيم لائحة اصلاحية تقضي : ١ـــ بمساواة العثمانيين بقطع النظر عن ملهم ٢ـــ بانشاء مجلس المبعوثان للسيطرة على مالية البلاد واصلاحها ٣ـــ بمحاكمة الوزراء في محكمة خاصة اذا اذنبوا أي جعلهم مسأولين خلافاً لما كانوا عليه ٤ـــ باطلاق حرية المطبوعات . لان عبد العزيز لما شعر بهياج الشعب ادرك ان حرية المطبوعات كانت السبب فخنقها

ولما قرّروا هذه اللائحة اتفق مدحت باشا مع السفطاء ان يقوموا بثورة عامة ويخلعوا السلطان اذا ابى اجابة هذه المطالب ويولوا مراداً مكانه . وكان

عوني باشا في الوقت نفسه قد أعدّ القوة العسكرية لانفاذ مشروع الخلع وشيخ الاسلام الجديد خيرالله افندي اصدر فتوى بالخلع مدارها اخلال السلطان بواجباته

وفي ليلة ٢٠ ايار (مايو) سنة ١٨٧٦ قاد عوني باشا الجنود الى القصر السلطاني وأمرهم بالاحاطة به وهم لا يعلمون ماذا يكون . ثم ذهب عوني باشا الى قصر الامير مراد واوقظه وابلغه انه سيخلف عمه فذعر الامير ظانّاً ان ذلك مكيدة له ولكن عوني باشا طمأنه

وكان رديف باشا مستشار الحربية قد عُهد اليه ان يدخل على السلطان عبد العزيز ويبلغه الفتوى وبغية الامة بخلعه فدخل القصر بالرغم من مقاومة الحرّاس . وقد أحس السلطان عبد العزيز بهضوضاء في قصره فنهض مذعوراً واذا برديف باشا واقف فوق رأسه فصرخ به ان يخرج من غرفته . فقال له رديف باشا ,, قم وانظر جنودك المحيطين بقصرك يريدون ان ينفذوا بغية الامة بخلعك ،، . فاسقط عبد العزيز بيده وادرك الدسيسة وجعل يتغضب على مراد

وعند ذلك كان عوني قد وصل مع الامير مراد الى دار السرعسكرية حيث كان جميع اعضاء الديوان ينتظرونهما وكان جمهور من الاحرار من كبار الدولة والعلماء وغيرهم فنادوا بالامير مراد خليفةً . وفي اليوم العالي قرأ السلطان الجديد منشوره واعداً فيه بالاصلاح وهو منشور لم يسبق له مثيل لما فيه من روح الديموقراطية . اما عبد العزيز فيئس من أمره وانتحر بنفسه بعدئذٍ . وأهم ما يذكر من أعماله في عهده انشاء البنك العثماني عام ١٨٦٢ ومعاهدة لندن عام ١٨٧١ التي كانت ضربة جائرة على الدولة . وبلغ دين الدولة لعهده نحو ٢٠٠ مليون ليرة عثمانية

وكان مراد طيب القلب حسن النية ميالاً الى المدنية الجديدة . ولكنه على ما يظهر كان ضعيف القلب والارادة فكان الصولجان ثقيلاً بيده فلم

يطق حمله اكثر من ثلاثة أشهر فخُلع بفتوى انه مجنون وتولى جلالة السلطان عبد الحميد الحالي بدله في آخر آب سنة ١٨٧٦ وكان مدحت باشا نفسه نصيراً له لانه رأى ان السلطان مراد لا يقوى على القيام باعباء الحكم ولا سيما لانه عصبي المزاج جدًا وقد أثرت عليه الحوادث ولا سيما انتحار عبد العزيز فمرض وكان مضطر بآكل الوقت . وقد أمّل مدحت باشا ان جلالة السلطان عبد الحميد ينفذ الاصلاحات المطلوبة

٣ — مدحت ومجلس المبعوثان

وقبل ان يتبوأ جلالة السلطان عبد الحميد العرش كان قد وعد مدحت باشا أن ينفذ الاصلاح . وقد وقّع على القانون الاساسي الذي كان مهيئاً على نية ان يعلنه على أثر مبايعته . وبعد ستة اسابيع أُعلن رسمياً بان جلالته سينشر لائحة الاصلاح الجديدة التي كان الشعب يتوقعها لان روح الاصلاح كانت قد عمّت الامة في ذلك الحين

ولكنه ما لبث ان ابلغ مدحت باشا ان الاصلاحات التي قدمها اليه بطريقة غير رسمية لا توافق احوال المملكة وان لا بد من تنقيحها ففهم مدحت باشا ان جلالته يبتغي التملُّص من القانون الاساسي . ولكنه بقي مؤملاً ان ينفذ تلك الاصلاحات عن يد مجلس المبعوثان الذي لم يرَ جلالته بدًّا من دعوته

وعلى أثر ذلك تعين مدحت باشا صدرًا أعظم فأعلن القانون الاساسي باحتفال عظيم في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٧ وتلا حينئذ جلالة السلطان منشوره الاصلاحي مبيناً الداعي لانشاء مجلس المبعوثان (الذي سيكون موضوعنا في النبذة الثانية)

على ان جلالة السلطان لم يكن راضياً بالقانون الاساسي ومجلس المبعوثان

قلبياً وانما تظاهر بذلك لكي يسترضي حزب الاصلاح ريثما يجد الوسائل الكافلة باستعادة الحكم المطلق ومن ثم رأى ان يقطع الحية من رأسها وذلك بان يبعد مدحت باشا لانه هو محور حركة الاصلاح فعزله من الصدارة العظمى ونفاه الى اوروبا . وهناك كتب في مجلة القرن التاسع عشر بعض مقالات مهمة عن تركيا

وما لبث ان استدعاه جلالة السلطان لانه حسب حساباً له وهو في اوروبا وولاّه ولاية كريت في تشرين الاول (اكتوبر) وبعد شهرين ولاه على ولاية سوريا وهناك اتُّهم انه سيعصى ويستقل بالولاية فأُرسل والياً الى ازمير . ثم استدعي الى المحاكمة في الاستانة بتهمة انه قاتل عبد العزيز . ولكنه علم بالدسيسة فلجأ الى قنصلية فرنسا فوردت رسالة من الاستانة مؤمنة على حياته فسلّم نفسه وأُخذ الى الاستانة وحوكم وشُهد عليه زوراً انه قاتل وحُكم عليه بالاعدام ولكن مجلس الوزراء ابى ان يصادق على الحكم وسفراء الدول اعترضوا عليه فابدل النفي بحكم الاعدام ونفي مدحت باشا الى قلعة الطائف وبقي في منفاه ٣ سنوات ثم قُتل ويقال ان راسه أُرسل الى الاستانة

اما مجلس المبعوثان فانعقد وكان يتباحث بأهم المسائل في ذلك الحين وكان في بحر انعقاده حرب هائلة للدولة مع روسيا . وقد حدث خلاف شديد بين اعضائه ورجال الحكومة لان الاعضاء كانوا يتباحثون بكل حرية وبحسب ما يخولهم القانون فعزّ ذلك على كبراء الحكومة الذين كاد المجلس يكف يدهم عن الاستبداد حتى لما اشتد الخلاف أمر السلطان بحل المجلس وبقي ملغىً حتى تموز الماضي كما علم القراء الكرام

وفي الجزء التالي تفصيل الحكم لعهد جلالة السلطان عبد الحميد الثاني الحالي

نقولا الحداد